انا والعراف

اذا مررت من شارع الخديوي الاول فى مدينة الاسكندرية ، ووصلت الى مفرق الطرق المؤدي الى شارع صلاح الدين ، رأيت امامك رجلا ذا أطمار بالية جالساً على مقعد بسيط وأمامه بعض كتب ممزقة وخرق بالية وقليل من الرمل

هذا هو الشيخ علي العرّاف الذي يدعي علم السموات والارض ، مررت فى صباح احد الايام من هناك فرأيته وقد التف حوله نفر كبير من العامة يشرح لهم ما سوف يلاقونه فى الحياة من المتاعب والفوائد بعبارات كانت تخلب عقولهم ، وتؤثر على عواطفهم ، وكانوا ينظرون اليه نظرة الاعجاب بما أوتيه من علم وذكاء

وقفت طويلا وقد نظرت الى الرجل نظرة عميقة وتأملت فى كل كلمة يلقيها على هؤلاء فرأيت ان الرجل وان يكن مشعوذاً فهو ينصح لهؤلاء المعجبين به فى آخر كل حديث بالابتعاد عن المعاصي والمنكرات . ولما انفض الجمع من حوله سألته قائلا :

هل لك ان تقول لي كيف ستكون ايامي الاتية ؟ وهل لك ان تفتح ابواب مستقبلي لتصف لي ذلك الشبح الذي يتراءى من بعيد ـ شبح المستقبل المجهول ـ لتخبرني اذا كان ملاكا رحيماً ، او شيطاناً رجيماً ؟ أتستطيع ايها الشيخ ان تطرق باب المستقبل وانت واثق تمام الثقة بانه سيفتح امامك ؟ قل لي بأي كتاب طالعت ؟ ومن اين استقيت هذه المعلومات التي أراك تبديها برباطة جأش ؟ من قال لك ان ابواب المستقبل تفتح فى وجوه البشر فيعلمون ما فى بطون الايام والليالي ؟ أليس المستقبل بحراً قد عج عجاجه واصطخبت أمواجه ؟ فما أدراك اذا كان يحمل الدر والجوهر ، أم الموت الاحمر ؟ أليس المستقبل بيد الله ؟ ؟

كنت اتكلم هذا وهو ينظر الي باسم الثغر وما انتهيت من كلامي حتى القى نظرة عميقة كأنه يريد ان يستطلع حقيقة نفسي ثم قال بصوت خافت ملؤه اليأس والخشوع : نعم . المستقبل بيد الله يا صاحبي . اني أعلم ذلك واثق به ولكن روح

هذا الزمان مملوء بالرياء والخداع والضجيج والجلبة . تأمل في حركة الاشغال في هذا العصر وتعمق في درس اسرار النجاح تر ان الخداع والرياء بل الضجيج والضوضاء وتزويق الاعلانات سبب أعظم في رواج البضائع الكاسدة وتسلع الرديئة كن طبيباً كاذباً وتاجر في الاسواق والشوارع بانك دوست صناعة الطب وتعمقت في اسرارها ، وبادر الى الاعلانات — بل دق طبلك وانفخ زمرك يقبل عليك الناس والا فما أنت مصادف طريق النجاح ولا يحالفك على الشهرة التي تريدها

بادر الى اقامة حفلة واعلن ان اعاظم رجال الفن سيلقون اخطب مختلفة في الموضوعات المفيدة ولا تجد نجاحاً ولا يحضر حفلتك هذه الا نفر قليل ولكن بادر في اليوم الثاني الى اقامة حفلة تسام فيها ضروب الالعاب والدعوة وتمثل فيها القطع التمثيلية الفذة واعمد الى الاعلانات المزوقة المزينة ودع الطبل والزمر في مقدمة الوسائط فانك لا ترى غير النجاح . كل ذلك يدلك على ان روح هذا الزمان متمردة لا تؤثر فيها سوى العوامل الصاخبة الداوية . ثم فالجمهور لا يميل الى الحقائق كميله الى الخرافات والتوهمات وانك لتجد الناس في دور الاوبرا والملاهي ، والمسارح ، لا يصغون الا لما سفل من الاغاني ، واحط من الاناشيد ، ولا يبتهجون الا لمهارة من الراقصات ، والوسن من المغنيات ، ولا يتجاوبون بالتصفيق والاعجاب الا للرواية السخيفة الفرض ، والقطعة التمثيلية البلهاء الفذة ، ولا تؤثر الموسيقى في اعصاب احدهم الا اذا اختلطت نغمات الاوتار كلها ، وامتزجت اصواتها فاستحالت زوبعة من الثم صاخبة داوية

اعمد الى تصفح الكتب التي يقاطعها الجمهور بلذاته ومرائه ، ليجد فيها مسرته وتهذيبه ، تلفت واجداً غير كتب فاسدة عن الفساد ، والعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة ، وعن القصوصية وغرائبها ، والشرطة واسرارها ، وحوادث المجون وفظائعه ، والكتاب الذي يريدان يكون محبوباً من الجمهور ، منسجماً مع « موضة » الجيل يجب ان يكون حيوانياً قبل كل شيء . . . والجمهور يميل الى الاقاصيص على شريطة ان تطبع بطابع العلوم العصرية كالتنويم المغناطيسي ومناجاة

الارواح وقراء الكتب يتعشقون اليوم من الشعر الرمزي المختلق بالاستعارات والرموز ، والكنايات والمجازات ، وان لم ينطو تحت هذا شيء من الغرض الشريف او مسحة من المعنى النبيل ، فاذا خرج من ثنايا هذه العاصفة الكتابية كتاب فلسفي ممتع ، او رسالة نقية الروح ، جليلة المقصد ، او ديوان شعر حار القصيد ، ملتهب الشاعرية ، جديد النحى ، فلا يكون نصيبها الا الثناء في رفوف المكاتب ، وفي مخازن المطابع ، وفي بيوت اصحابها ، وعند طائفة معدودة من المهذبين . ومن ثم كان المبدعون من الكتاب والادباء لا يجدون من الاقبال والمكانة والرواج ، ما يجده السخفاء والحمقى والادعياء وليس ذلك الا اكبر دليل على ان اعصابنا واذهاننا لا تقبل الا السخيف والحيواني المظلم والبليد

فاذا كانت هذه حالة الطبقة المفكرة من الجمهور فهل يلام العامة على ميلهم الى تصديق الخرافات وضروب الشعوذة ؟ كلا . وثق اني لا اصادف نجاحاً كالنجاح الذي اصادفه في هذه المهنة الشائنة . وقد تسألني لماذا لا اتعمد الى طريقة أخرى تكسب منها نفقتك فاسمع : هل تعتقد بربك اني اكثر ضرواً من ممثلي الروايات البذيئة على المسارح ؟ ألا ترى كيف يمثل هؤلاء روايات تشين سمعة مصر والمصريين؟ هل حضرتها لتعلم ان الخطر من رواجها عظيم ؟ ألا ترى كيف يظهرون المرأة المصرية بشكل ينفر منه الذوق ؟ وربما لاحظت يا صاحبي اني انصح لكل طالبي معرفة الغيب بالخضوع لاوامر الله ولاحظت كم اردد في كلامي القول بان العلم عند علام الغيوب . فهل بعد ذلك أعد خطراً اكثر من هؤلاء ؟

انا لا احاول تبرير عملي الذي ينشأ عنه ضرر فادح من حيث التأثير على عقول العامة وحملهم على الاعتقاد بالتدجيل والشعوذة ولكن ما انا الا رجل أطلب العيش فقط لا الغنى العاجل . لتقم الحكومة بتربية اولاد الغد على النهج القويم فيصبحون اول من يكره التدجيل والدجالين وانظر بعد ذلك ماذا يكون من أمري وامر زملائي ؟ ومع كل هذا فقد قلت لك ولا ازال اقول اني لا أرى ما يبرر اشتغالي بهذه المهنة الشائنة وانا عليم بانني أعاني آثاماً أمراً فريباً نحو هذا الشعب الذي انا فرد

منه ، وكان الاولى بي ان اقوم بخدمة نافعة في هذا العالم بل تحت سماء هذا الوطن. ولكن اسمع : لست اول مشعوذ . لا تقطع علي الكلام وعفني اكمل

ان المشعوذين كثيرون . فالتاجر لا يبيع بضائعه اليوم الا بالغش والاحتيال والخداع . والصانع لم يعد يرضى بالكسب القليل بل يحاول ان ينال حظاً وافراً وها هم حديثو النعمة كثيرون ممن نالوا الغنى العاجل بطريقة اعلمها انا كما تعلمها أنت ولكننا لا نقبلها

قلت لك ان الشعب لم يصل بعد الى درجة يميز بين الضار والنافع ، ولا اريد بالشعب الا الاكثرية الساحقة التي لا تزال بحاجة شديدة الى الاستقاء من ينابيع العلم ، ولا يتم ذلك الا بتعميم المدارس المجانية ، وبث روح العلم الصحيح

قلت : — اما وقد اخذت البلاد اليوم تستعد للسير في طريق حياة جديدة ، فعليك واجب ألا تزيد في تغرير هذا الشعب وخداعه ، لانك فرد منه ، نعم اني لا انكر عليك صحة ما قلته من أن كل شيء قائم بالخداع في هذا العالم ، ولكن وقد أحسست أنت بذلك فعليك أن تقتنص على عمل اليق بكرامة نفسك وكرامة الشعب الذي تنتمي اليه ، نعم ان الكثيرين من أمثالك لا يزالون يخدعون العامة بشعوذتهم حتى في أرقى بلاد تحت السماء ، ولكن ما دمت تعترف بالضرر الفادح الذي ينتج من هذا التلاعب بعقول الامة ، فعليك ان تسعى في اكل خبزك من عمل أشرف من هذا

قال الشيخ : — سأفعل ذلك ان شاء الله . سوف افكر في عمل امارسه لاعيش منه . ثق بذلك ولكن لا تنس اني اول مشعوذ وقد يرهنت لك ان العالم مملوء باناس يحتالون ويشعوذون تحت ستار حق في التجارة والصناعة ، حتى في الطب والمحاماة ، يوجد روح الخداع

قلت اني لا انكر ذلك ولكي أجدك بعد قليل قد قمت بالواجب نحو ضميرك

أجاب بهدوء : — سأفعل . سأفعل ان شاء الله . . .

(الاسكندرية) نقولا شكري